اللاتسامح.. السوس الذي نخر عظام الحضارات والأديان والفلسفات

عمار علي حسن

لا يمكن لعاقلين أن يختلفا على أن التعصب آفة، لأنه يأكل عقل الفرد وروحه، ويشتت جهد الجماعة الوطنية في معارك فرعية، بعضها قد يتسع ويستفحل ليهدد مصير الوطن نفسه. ولهذا علينا أن نتعلم كيف نتسامح مع الآخرين، وندرك أن هذه فضيلة لا يمكن التفريط فيها، وأنها كعادة كل الفضائل تقع في منزلة بين المنزلتين، أي في منتصف المسافة بين التعصب واللامبالاة.

إن التسامح هو صورة التكيف التي بمقتضاها تميل الجماعات المتعارضة إلى الانسجام المتبادل، وتحاشي الصراع من أجل التوصل إلى حل عملي، في ظل مبدأ عدم التدخل في معتقدات وتصرفات الآخرين التي لا يحبذها المرء، ولا تروق له. ومن ثم فإن قضية "عش واترك الآخرين يعيشون" تعتبر مثالا مبسطا وجليا على التسامح.

وتوجد درجات متنوعة لمبدأ عدم التدخل، أولها أن يتجاهل المرء الآراء والأفعال التي لا تناسب طبيعته، وثانيها أن يعبر عن عدم تحبيذه لها، وثالثها أن يحاول دحض الآراء والأفكار التي لا يستسيغها.

معنى التسامح ومبناه
إلى الوراء قليلا
اضافات اليونسكو
نعم للتسامح ... لا للتساهل
التعصب الديني.. مسار طويل ومعقد
ثقافات مريضة
عقل مختل وسلطان مستبد

معنى التسامح ومبناه

التسامح، الذي كرس الدبلوماسي والكاتب الإيطالي مايكل أنجلو ياكوبوتشي كتابه "أعداء الحوار: أسباب اللاتسامح ومظاهره، لمدحه وتعظيمه، هو من القيم الأصيلة في ثقافة الديمقراطية، إذ إن الحريات الثلاث المرتبطة بالتفكير والتعبير والتدبير، تنطوي على تسامح مع المعارضة السياسية، أو مع الآخر المختلف معنا في الاتجاهات والتوجهات. ويوصم بالتعصب والاستبداد كل من يحاول أن يحرم المعارضين من التعبير اللفظي والحركي عن أنفسهم، ما دام قولهم وفعلهم لا يخالف القانون، ولا يشكل اعتداء على حريات ومصالح الآخرين.

وكتاب ياكوبوتشي هو نتاج خبرته العريضة التي استقاها من أعمال ومناصب متعددة شغلها في مسيرته الطويلة، فهو دارس للقانون والعلوم السياسية، وعمل في مطلع حياته ضابطا في سلاح الحو الإيطالي، ثم قنصلا في ملبرن، وممثلا دائما لإيطاليا لدى الوكالة الدوية للطاقة الذرية بفيينا، ثم مستشارا سياسيا لسفارات إيطاليا في دبلن وبكين وواشنطن، وسفيرا لبلاده في الجزائر واليونان والبرازيل، وبعدها متحدثا رسميا باسم الرئيس الإيطالي الأسبق ساندرو بريتني، فعضو المجلس التنفيذي لليونسكو، ورئيسا للمجلس التنفيذي للاتحاد اللاتيني.

إلى الوراء قليلا

بداية، لو عدنا إلى الوراء قليلا، نجد أن "جون لوك" وهو من كبار الفلاسفة المدافعين عن التسامح الديني في وجه تعصب الكنيسة وتجبرها، وضع في كتابه الصغير المهم "رسالة في التسامح"، مجموعة من الضوابط، التي لا يمكن تعديها حتى يصبح التسامح قيمة إيجابية، ولا ينزلق إلى التساهل أو اللامبالاة أو حتى ما هو دون ذلك بكثير.

ومن هذه الضوابط الترويج لمعتقدات وأصول تهدد بتدمير المجتمع، وإشاعة الإلحاد والفوضى، وتدمير بنية الدولة وتعريض مصالحها الوطنية للخطر، والتعدي إلى أموال الآخرين وحرماتهم، وإبداء الولاء لحكام أجانب، ما يعني خيانة الوطن، والخيانة ليست وجهة نظر، بل جريمة بشعة، لا يجب التساهل أبدا في عقاب مقترفيها.

"
تغيرت النظرة إلى مفهوم التسامح منذ أن ارتبط بشعار "الحرية والمساواة والإخاء" الذي رفعته الثورة الفرنسية، حيث تخلى عن الطابع الأبوي، وأصبح يقوم على "الحق" الذي لا تفريط فيه، كما يرتبط بالمواطنة.
"

وأقر الإسلام في نصه ثقافة التسامح من خلال تأكيده على مبادئ الإخاء الإنساني، والاعتراف بالآخر واحترامه، والمساواة بين الناس جميعا، والعدل في التعامل مع الناس بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية واللسانية، وإقرار الحرية المنظمة. وهناك عشرات الآيات القرآنية التي ترسخ هذه المبادئ. أما على مستوى الفلسفة الإسلامية، فربما يكون الكندي من أكثر من أقروا ثقافة التسامح حين دعا إلى منطلقات خمسة هي: ضرورة البحث عن الحقيقة لذاتها، وعدم إحاطة رجل واحد بالحقيقة بل قد لا يحيط بها الجميع، وتعرض الكل للخطأ، كما أن الوصول إلى الحقيقة يتطلب مشاركة الناس جميعا، وأن التسامح ضرورة من أجل تحصيل التقدم. لكن كثيرا من الممارسات التي قام بها أغلب حكام المسلمين، ومن تحلق حولهم من الولاة والأتباع، افتقدت إلى روح التسامح، وخالفت الكثير مما جاء في النص القرآني الكريم.

وقد اختلف مفهوم التسامح في الماضي عما هو عليه الآن. فمن قبل اكتسى هذا المفهوم بطابع أبوي، ولم يكن ناجما عن تطبيق مبدأ أو فكرة عظيمة وعميقة إنما مجرد سلوك فاضل، ما يعني أن هناك طرفا لديه اليد الطولى على طرف آخر، وأنه يتسامح معه من قبيل العطف والشفقة أو فعل الخير. من هنا تبدو فكرة التسامح مرتبطة بالتعالي والازدراء بل والطغيان، إذ إننا حين نقول لشخص إننا نتسامح مع ما يفكر فيه، فهذا معناه أن تفكيره لا قيمة له، لكننا سنغض الطرف عن ذلك من قبيل المجاملة.

أما اليوم فقد تغيرت النظرة إلى المفهوم منذ أن ارتبط بشعار "الحرية والمساواة والإخاء" الذي رفعته الثورة

الفرنسية، حيث تخلى عن الطابع الأبوي، وأصبح يقوم على "الحق" الذي لا تفريط فيه، ويرتبط بالمواطنة، التي تعني عدم التمييز بين الناس على خلفيات تتعلق بالدين والمذهب والعرق واللغة والوضع الطبقي، ولا يرتبط بالمزاج الشخصي ويجعل منه أساسا لإقرار التسامح وكفالته.

إضافات اليونسكو

وفي دورته الثامنة والعشرين التي استضافتها العاصمة الفرنسية باريس في نوفمبر/ تشرين الثاني من عام ١٩٩٥ اعتمد المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو تعريفا شاملا للتسامح يرى فيه ما يلي:

١. التسامح هو الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثري لثقافات عالمنا، ولأشكال التعبير، وللصفات الإنسانية لدينا. ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال، وحرية الفكر والضمير والمعتقد. وأنه الوئام في سياق الاختلاف، وهو ليس واجبا أخلاقيا فحسب، إنما هو واجب سياسي وقانوني أيضا. والتسامح هو الفضيلة التي تيسر قيام السلام، يسهم في إحلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب.

٢. لا يعني التسامح المساواة أو التنازل أو التساهل، بل هو قبل كل شيء اتخاذ موقف إيجابي فيه إقرار بحق الآخرين في التمتع بحقوق الإنسان وحرياته المعترف بها عالميا. ولا يجوز بأي حال الاحتجاج بالتسامح لتبرير القيام بهذه القيم الأساسية. والتسامح هو ممارسة يجب أن يأخذ بها الأفراد والجماعات والدول.

٣. إن التسامح مسؤولية تشكل عماد حقوق الإنسان والتعددية، بما في ذلك التعددية الثقافية، والديمقراطية وحكم القانون، وهو ينطوي على نبذ الدوجماتية والاستبدادية، ويثبت المعايير التي تنص عليها الصكوك الدولية الخاصة بحقوق الإنسان.

٤. لا تتعارض ممارسة التسامح مع احترام حقوق الإنسان، ولذلك فهي لا تعني تقبل الظلم الاجتماعي أو تخلي الفرد عن معتقداته أو التهاون بشأنها، بل تعني أن المرء حر في التمسك بمعتقداته، وأنه يقبل أن يتمسك الآخرون بمعتقداتهم. والتسامح يعني الإقرار بأن البشر المختلفين بطبعهم في مظهرهم وأوضاعهم ولغاتهم وسلوكهم وقيمهم، لهم الحق في العيش بسلام، وفي أن يطابق مظهرهم مخبرهم، وهو يعني أيضا أن آراء الفرد لا ينبغي أن تفرض على الغير.

وحتى لا يكون التسامح الذي ينشده الخيّرون من الناس مجرد كلام معسول أو انقلاب مفروض على الاختلاف الواقعي للآراء والمعتقدات، يتعين إحداث طرف ثالث، أو كلام ثالث، يعمل على استقرار التسامح وتوازنه بين الأنانيات الفردية أو الجماعية. وهذا لن يتحقق إلا بعد تعاقد راسخ البنيان بين المجتمع والسلطة، وبين مفردات الجماعة الوطنية نفسها، تتم ترجمته في الدستور والقوانين المكتوبة أو العرفية، وهو ما يبلغ رشده في سياق إطار سياسي ديمقراطي سليم.

وهناك عدة مفاهيم تربطها صلات مختلفة بمفهوم التسامح، وينظر إليها البعض باعتبارها مترادفات له، نظرا لأنها تتشابك معه، بما يؤدي إلى تداخل طرق فهم التسامح، إلى درجة أن الاختلاف حول هذا التسامح يمكن أن يفهم باعتباره صراعا بين هذه المفاهيم، والتي تشمل التساهل والتعايش والسلام الاجتماعي والمجاراة والاحترام والتقدير والحلم والاعتدال وقبول الآخر. لكن أي من هذه المفاهيم على أهميتها لا تغني عن التسامح، ولا تحل محله، بل تساعد على فهمه، وتشرح بعض جوانبه، لكنها تظل طيلة الوقت أقل وأضعف من أن تنسخه، أو تزيحه تماما.

نعم للتسامح ... لا للتساهل

"
ينطوي التساهل على

لكن التسامح يختلف اختلافا كبيرا عن التساهل، الذي يعني في معناه ومبناه: كل تنازل عن حق، أو شيء تملكه، ولك فيه مشروعية وشرعية ظاهرة، وكل تهاون مع مخطئ أو عابث أو مفرط أو خائن، لاسيما إن لم يكن مقرا بخطأه وخطيئته، وليست لديه النية في التراجع عما اعتنقه من أفكار وما سلكه من ممارسات.

وينطوي التساهل على جبن وتخاذل عن استرداد الحق أو حفظه، ولذا فهو أحد المداخل الكبرى لاستشراء الفساد، وانتشار الضعف والهوان، وضياع الحقوق، وغياب العدل، وتراخي قدرات الدولة والمجتمع.

جبن وتخاذل عن استرداد الحق أو حفظه، ولذا فهو أحد المداخل الكبرى لاستشراء الفساد، وانتشار الضعف والهوان، وضياع الحقوق، وغياب العدل، وتراخي قدرات الدولة والمجتمع.
"

ورغم الإيجابية التي ينطوي عليها مصطلح "التسامح" فإن الناقد الإيطالي أمبرتو إيكو له فيه رأي سلبي لافت حيث يقول في معرض تقديمه لكتاب ياكوبوتشي: "هو مصطلح مبهم، وهو بإيجاز، مصطلح لامتسامح، حيث إنه يفترض بالفعل، وفقا لرافضيه، بأنه يمكن لنا الاعتقاد بأن شخصا ما غير مقبول بشكل أساسي، أو أنه أدنى منا مرتبة، ولذا فمن الأفضل تحاشيه، بيد أننا نتسامح معه من باب الأدب، أو إيثارا لمبدأ السلامة". لكن إيكو يمقت العنصرية البدائية أو "اللاتسامح الحيواني" الذي يُعزى إلى أسباب بيولوجية، ويراه الأخطر بين ألوان التعصب قاطبة. إذ يمكن مواجهة "العنصرية العلمية" بإبداء الحجج العقلية المقنعة.

ويعود جانب كبير من اللاتسامح في رأي ياكوبوتشي إلى غريزة العنف لدى الإنسان، التي بدأت معه منذ بدء الخليقة، وهو عنف ذو طابع فلسفي وأخلاقي يتصل بالطبيعة البشرية، وبقدر الإنسان على الأرض، لكنه من الناحية العملية يأتي في صيغة مأزق سياسي في الغالب الأعم، وهو يتوزع على أربعة اتجاهات، تتعلق باللاتسامح الديني، المرتبط باليقين المطلق في تصور حقيقة تأتي من الله تعالى، واللاتسامح الثقافي وهو اليقين المطلق لحقيقة واحدة تنحدر من الآباء، واللاتسامح السياسي وهو اليقين المطلق لحقيقة واحدة تأتي من عند الرئيس، وأخيرا اللاتسامح الأيديولوجي وهو اليقين المطلق أيضا لكن لحقيقة تأتي من العقل.

وينطلق ياكوبوتشي من هذا ليتتبع استمرار قيم اللاتسامح وأعراضه في الأديان والمذاهب والفلسفات والممارسات البشرية، في مشارق الأرض ومغاربها. وهو بحث عريض ومطول وعميق يصفه هو قائلا: "بحثي هذا لا يسعى وراء عرض صنائع السوء، والنفس السوداء لهذا الدين أو ذاك، أو لأيديولوجية أو لأخرى، أو لعرق أو لآخر، أو لحركة سياسية أو لأخرى، بل إنه يسعى للتأكيد على أننا كلما مددنا أعيننا في الزمان والمكان، أدركنا أنه لا يوجد بشر أو شعوب، فقط من حيث الجوهر، أخيار أو أشرار، وأنه لا توجد عقائد أو أيديولوجيات حسنة تماما أو سيئة تماما، بل يوجد فقط أناس على قناعة راسخة بأن بعض الأفكار تمثل الخير المطلق، والأفكار المعارضة تمثل الشر. وهذا يحدث لأن هؤلاء يفسرون بطريقة جامدة، تفتقر إلى الإستناد النقدي للمُثل والنواميس التي انتقلت إليهم من خلال معلمين بارزين، ومن خلال حكمة تكونت عبر آلاف السنين. مُثل ونواميس أصبحت في النهاية سجنا لهم، لايمكنهم التحرر منه، حتى وإن غيروا الظروف".

التعصب الديني.. مسار طويل ومعقد

"
جاءت الأصولية الإسلامية لتجنح بعيدا عن تعاليم الإسلام التي تحض على الرحمة، وتؤمن بحرية الاعتقاد، وتمنع الواسطة بين الإنسان وخالقه. وأخذت هذه الأصولية، لاسيما في شقها

السياسي، تنتج خطابا معاديا للآخر.
"

يبدأ ياكوبوتشي باللاتسامح الديني، الذي يعتبره "القتل باسم الرب" ويظهر في الحروب المقدسة والقتل الشعائري والانتحار الجماعي واضطهاد المنشقين، ثم يقول: "إن رحلة بين أعداء الحوار ينبغي أن تبدأ، حتميا، من الدين. أحد أضخم الموضوعات التي تفرض نفسها في كل حديث عن اللاتسامح، ودائما تحظى منه بنصيب الأسد". ومن ثم فإن العديد من أشكال التعصب مثل كراهية الأجانب، والعنصرية، والاضطهاد، مرتبطة بالممارسات الدينية في جانب منها، رغم أن مختلف العقائد تحض على التضامن والشفقة، ورغم أن الدين، مهما كان تجسده التاريخي، ثبت أنه منبع لا بديل عنه للرحمة والعدالة.

إن البرهنة على هذه المقولة يمكن أن تعود بنا إلى بدء الخليقة، لنتتبعها في مسيرة التاريخ البشري كله، لكن التقاط بعض الأحداث التي وقعت في العقود الأخيرة يكفي للدلالة على ذلك. فالشاب اليهودي المتطرف إيجال عامير الذي قتل رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحق رابين برر ما أقدم عليه بقوله: "لقد أمرني الله بذلك، ولست نادما" وكان في هذا يمتثل لنصوص عديدة في التوراة والتلمود تحض على القتل. ولم تضع الحرب بين الكاثوليك والبروتسانت في أيرلندا أوزارها إلا قبل سنوات بعد أن أزهقت مئات الآلاف من الأرواح. والخيمني كان يرسل الأطفال ليفتحوا حقول الألغام أمام جنود المشاة، وفي أعناقهم مفاتيح الفردوس. والأصوليون الهندوس قاموا بهدم مسجد قديم وتسويته بالأرض مخلفين آلاف القتلى.

ويعود اللاتسامح الذي تنتجه الممارسات الدينية المجافية لمقاصد الأديان وغاياتها، في نظر ياكوبوتشي إلى ثلاثة أسباب رئيسة:

- **أولها:** تسييس الدين، وهو بدأ في اتحاد مهام الحاكم والكاهن في شخص واحد أو التحالف بينهما، الذي استمر قرونا عانت فيها شعوب الغرب من تبادل المنافع بين السلطتين الكنسية والزمنية، وتسخير مختلف السلطات للدين بتحويله إلى أيديولوجيا واستغلاله في كسب الشرعية، والتلاعب بالجماهير، ورفع الغطاء عن المعارضين باتهامهم بالرفض أو الهرطقة أو الردة.

- **وثانيها:** هو قيام بعض رجال الدين في المسيحية واليهودية، بالحيلولة دون العلاقة المباشرة بين الإنسان وربه، عبر الكهنوت. وقيام بعض علماء الدين ورموزه في الإسلام بمحاولة لعب الدور نفسه، رغم أن إحدى ركائز الإسلام هي عدم وجود أي واسطة بين الإنسان والله سبحانه وتعالى.

- **أما السبب الثالث**، فهو قيام أتباع كل دين برفض "الأغيار" أو أتباع الديانات الأخرى، فاليهودية رفضت المسيحية، والأخيرة ترفض الإسلام، والأخير لا يرفض الاثنين لكنه يعتمد مسارا معينا لهما، انطوى عليها القرآن الكريم، الذي يقول: "لا نفرق بين أحد من رسله".

كما أن أتباع الديانات السماوية الثلاث يرفضون الأديان والمذاهب الوضعية، ويطلقون على أتباعها اسم "الوثنيين". وقد بلغت هذا الرفض ذروته في مصر القديمة، حيث تم هدم معابد المعرفة، وتحويلها عنوة إلى كنائس، علاوة على قتل العلماء والفلاسفة، وفي مقدمتهم هياباتيا. وهنا يقول ياكوبوتشي: "بداية من عام ٦٠٩م، ومع تكريس البانثيون في روما أثناء بابوية بونيفاتشو الرابع بدأ افتتاح كنائس عديدة فوق المعابد، كنيسة تلو أخرى". ثم يسرد موجات أخرى من التعصب باسم المسيحية، مثل الصراع بين المسيحيين أنفسهم حول الثوابت العقدية، وموضوعات الهرطقة الكبرى، ثم حرب الفرنجة التي رفعت شعار "الصليب"، وبعدها محاكم التفتيش في القرون الوسطى، والتي تعد أكثر النقاط سوادا في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، وتلاها مطاردة الساحرات، ثم ظهور البروتسانتية التي أدت إلى أن تصير أوروبا مسرحا لحرب دينية طويلة، أظهر فيها الطرفان أدلة متساوية على البشاعة والغلظة، لم تنته الفصل الأكثر دموية فيها إلا مع صلح وستفاليا عام ١٦٤٨ الذي أنشأ مجتمعا دوليا جديدا يقوم على أساس الدولة القومية.

لكن قيام الدولة القومية وانتشار التحديث والحداثة لم يقضيا على الأصولية المسيحية، التي ولدت في الولايات المتحدة، وظلت تترعرع فيها حتى أوصلت أحد رجالها وهو جورج بوش إلى سدة السلطة، والذي سعى إلى تنفيذ أكثر أطروحات الإنجليين تعصبا، باحتلال العراق وأفغانستان، لتعبيد الطريق أمام الحرب الأخيرة التي تشهد عودة المسيح، كما يعتقد هؤلاء.

وجاءت الأصولية الإسلامية لتجنح بعيدا عن تعاليم الإسلام التي تحض على الرحمة، وتؤمن بحرية الاعتقاد، وتمنع الواسطة بين الإنسان وخالقه. وأخذت هذه الأصولية، لا سيما في شقها السياسي، تنتج خطابا معاديا للآخر، سواء من بين المسلمين الآخرين، الذين يشكلون التيار العريض والعام من بين شعوب العالم الإسلامي، أو أتباع الجماعات والتنظيمات الإسلامية الأخرى، دعوية كانت أم مسيسة، أو أتباع الديانات الأخرى.

على وجه العموم فإن الممارسة المبتسرة والمتجهمة والمنغلقة للدين هي أكثر العوامل إنتاجا للتعصب، لأنها لا تزال مسيطرة على أغلب السلوكيات البشرية، لاسيما تلك التي تميل إلى التفرقة بين البشر على أساس عقائدي، وفي الوقت ذاته فإن الدين فضلا عن قوته الكامنة فيه، تحول على مدى آلاف السنين إلى عباءة فضفاضة يتستر بها الكثيرون من الراغبين في ارتكاب أعمال عنيفة.

ثقافات مريضة

أما التعصب المبني على الثقافة، فيتعلق بالإجابة على تساؤلات محورية من قبيل: كيف يمكن قتل شخص ما لمجرد أنه مختلف عنا؟ وما هو الشيء الذي يعطي كلمة ثقافة القوة نفسها التي يتصف بها التعصب الديني؟ ويدور حول اتجاهين رئيسيين أولها يطرحه عالم الأنثربولوجيا جيمس لوفلوك ويرى أن الإنسان سفاحا بطبعه، وأن غريزة الصراع ولدت معه وتظل مدفونة في جيناته الوراثية. وثانيها يبديه جان جاك روسو الذي ينظر إلى الإنسان بوصفه "المفترس الطيب" الذي صار عنيفا بالتدريج بسبب تأثير المجتمع.

ويستهل ياكوبوتشي الحديث عن هذه النقطة بعبارة لميشيل دي مونتين تقول: "كل إنسان يطلق اسم بربرية على ما لا يدخل في عاداته، ويبدو في الواقع أننا لا نمتلك نقطة ارتكاز أخرى للحقيقة والمنطق غير أفكارنا، والتقاليد التي نحن عليها، التي يكمن فيها الدين الكامل، والحكومة الكاملة، والاستخدام الأمثل والدقيق لكل شيء".

وتبدو مظاهر هذا اللون من التعصب في "الخوف من الأجانب" و"اللاتسامح الثقافي" و"التعصب العرقي". فمجافاة الغرباء ونسلهم والتوجس منهم لم تنخفض حدته على مدى آلاف السنين، حتى مع تمكن الإنسان وسيطرته على البيئة. وكما يقول ياكوبوتشي: "حتى اليوم في مناخ العولمة يجد رواد الصالونات الفكرية في كبريات العواصم الغربية صعوبة في قبول أولئك الغرباء على قدم المساواة، أولئك المختلفين عنا في لون البشرة، الذين يفلحون في عبور الحواجز غير المرئية، والذين استطاعوا بسبب تميزهم أن يدخلوا ضمن الفئات السياسية الحكومية والدولية. ويمكن أن ينطبق على هؤلاء المفكرين المعاصرين الطرفة الساخرة لمونتسكيو الذي يصف بدقة رد فعل مواطني (باريس الصالحة) في القرن الثامن عشر، وقد وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع أمير جاء من اسطنبول، فسألوه: هل السيد فارسي؟ إنه لشيء عجيب! فكيف يمكن أن يكون الإنسان فارسيا؟".

وينحصر اللاتسامح الثقافي في متقابلات ومفاهيم وتصوات من قبيل الأنا والآخر، والرغبات المتعاظمة في إثبات الذات، والدفاع الأعمى عن الهوية، والتمركز حول الجماعة، والتخوف من الأيديولوجيات المضادة، مثل الهواجس المتبادلة التي كانت بين الشيوعية والرأسمالية، والتي طالما صبت مزيدا من الزيت على نيران صراعات عديدة في العالم، ثم فكرة صدام الحضارات التي صاغها صمويل هنتنجتون ليبرر بها سياسات المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية.

وهناك أيضا فكرة "خلق العدو" أو تفصيله على المقاس، المتوارثة منذ قديم الزمان. فالإغريق الأقدمون تحدثوا عن التهديد الفارسي، والرومان تكلموا عن خطر أهل قرطاجنة، وتناول الأوروبيون في زمن نهضتهم أحاديث مسهبة عن ىالعدو التركي، ثم شهدنا الخطر الأصفر، ومن بعده الأحمر، وأخيرا "الخطر الإسلامي"، الذي لم يقتصر على تبشيع تنظيم القاعدة وغيره من التنظيمات السياسية المتطرفة ذات الإسناد الإسلامي، بل امتد إلى غيرهم من المسلمين، وهو ما يعبر عن ياكوبوتشي قائلا: "يعود تعذيب الأمريكيين والبريطانيين لعراقيين عقب الاحتلال في جزء منه على الأقل إلى الدعاية التي تهدف إلى تبشيع صورة الخصم، وتصويره على أنه شيطان، ومن ثم فلا يكفي فقط سجنه، بل إن التعذيب وسيلة مقدسة، مثل محاكم

التفتيش تماما".

ويأتي اللاتسامح العرقي ليريق دماء غزيرة في تاريخ الإنسانية، بدءا بما جرى للهنود الحمر لدى اكتشاف أمريكا في ١٤٩٢ على أيدي الإنجليز والفرنسيين والأسبان والبرتغاليين، وانتهاء بما وقع للمسلمين في البوسنة والهرسك على أيدي الصرب، مرورا بالصراعات العديدة في القارة الأفريقية مثل ما جرى لليهود على يد النازي، وما وقع بين الهوتو والتوتسي في رواندا وبورندي، وما تفعله إسرائيل بالفلسطينيين.

عقل مختل وسلطان مستبد

"العرب بحاجة ماسة إلى التخلص من أي مسرب ولو ضيق يودي بهم إلى الوقوع في "التساهل"، الذي طالما أضاع حقوقهم ابتداء من" سايكس بيكو" وحتى "أوسلو."

وإذا أمعنا النظر في الجانب الثالث المتعلق باللاتسامح المستمد من اليقين العقلي، فنجد أنه على الرغم من أن العقل يبدو للوهلة الأولى مناصرا للحوار ومرادف للحكمة والاعتدال والانفتاح ومؤمنا بالشك الذي هو توأم التسامح، فإنه لا يخلو من إنتاج التعصب. ويظهر هذا في لاتسامح الأنظمة الشمولية المستمدة من الإيديولوجيات مع ادعاء العقلية أو حتى العلمية، ولاتسامح العنصرية التي تتوهم أن لون البشرة أو شكل الجمجمة هو سر التميز أو الانحطاط، وتسعى إلى البرهنة على ذلك بقياسات علمية مزعومة، ترمي بها إلى التحايل على مبدأ المساواة، والاستمرار في عمليات التمييز والقهر.

وفي ظل هذا يقوم بعض الأيديولوجيين والسياسيين بالضغط على علماء لتوفير معطيات حسب الطلب تخدم الرؤى والمسالك التمييزية, وقد يحدث العكس حين يشعر الأيديولوجيون والسياسيون بالرعب من تبعات الاضطهاد العنصري، ويلجؤون إلى العلماء ليوفروا أدلة على المساواة بين البشر.

وقد بحثت سياسات التمييز منذ البداية على حجج عقلية تسوغ لها ما تفعله. فإذا كان الهندوس قد بنوا نظاما للصفوة على أكتاف معتقدات دينية، فإن البيض في جنوب أفريقيا أبرزوا ما أسموها مبررات للتمييز هذا، منطلقين من ذرائع تدعي أن البشر جميعا ليسوا متساويين، فرديا أو جماعيا، وأن بعض الجماعات اكتسبت مع مرور الزمن مهارات تفوق الجماعات الأخرى، ولذا فإن الخلط بين الجماعات ذات القدرات غير المتساوية قد يؤدي إلى انخفاض المستوى العام للأداء.

أما اللاتسامح السياسي فتنتجه الأنظمة المستبدة والشمولية، التي يميز بعضها بين المواطنين على أساس النوع أو العرق أو الدين أو اللغة أو الجهة أو اللون، ويقوم بعضها بممارسة أقصى وأقسى درجات التعصب ضد قطاعات من الجماهير باستبعادها وتهميشها. ولا يبدو أن هناك من سبيل لإنهاء اللاتسامح السياسي سوى التعمق في الديمقراطية، على مستوى المفاهيم والتطبيقات، لأن الديمقراطية، مثل التسامح، هي وسيلة وحل وسط لتحقيق أقصى خير ممكن لأكبر عدد ممكن من الناس، من زاوية احترامها للمختلفين في الرأي والموقف.

وما ورد في الكتاب يجعلنا نقول بصراحة ووضوح جليين إن ترسيخ قيمة "التسامح" باتت ضرورة في العالم العربي، الذي يواجه استراتيجيات "الفوضى الخلاقة" وتتعرض بعض بلدانه للتجزئة والتقسيم جراء التعصب المذهبي والعرقي واللغوي، ويستشري العنف الاجتماعي في بعض أقطاره حتى صار مرضا مزمنا. كما أنه ضروري لنزع الأوهام والحمولات الزائفة والافتراءات التي لصقتها قوى معينة في الغرب بالإسلام، إما لوقف تمدده في القارة الأوروبية، أو لتبرير الموجة الجديدة من الاستعمار.

لكن في المقابل فإن العرب بحجة ماسة إلى التخلص من أي مسرب ولو ضيق يودي بهم إلى الوقوع في "التساهل"، الذي طالما أضاع حقوقهم ابتداء من "سايكس بيكو" وحتى "أوسلو"، ولا يبدو في الأفق طريق لاستردادها إلا بالإيمان القاطع والجازم بأن التفريط بدعوى "التسامح" و"قبول الآخر" فكرا وجسدا وقوة، رذيلة يجب أن تدفن إلى الأبد، وأن "التطبيع" مع العدو الصهيوني هو أقصى درجات هذا التفريط.

نوافذ

عنوان الكتاب: أعداء الحوار: أسباب اللاتسامح ومظاهره
المؤلف: مايكل أنجلو ياكوبوتشي
ترجمة: د. عبد الفتاح حسن
تقديم: أمبرتو إيكو
الناشر: دار شرقيات
الطبعة الأولى العربية، ٢٠٠٩

_____
كاتب وباحث في علم الاجتماع السياسي

المصدر:مركز الجزيرة للدراسات